

بدأت عملية النسخ في مراحلها الأولى منذ عهد النبي ﷺ حيث اتخذ كتبة الوحي العسب والكرانيف والأضلاع - أي أكتاف الإبل - واللخاف لكتابة الآيات القرآنية ؛ بل إنَّ بعض الصحابة كانوا يكتبون الأحاديث النبوية لأنفسهم . وقد حث الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ على تقييد العلم فقد روي عن عبدالله بن عمرو أنه قال : قلت : «يا رسول الله أقيد العلم ؟» قال : «نعم» ، قلت : «وما تقييده ؟» قال : «الكتاب»(١) .

ويقول القلقشندي : ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب ، وقع الحضُّ من الشارع عليه ، والحث على الاعتناء به تنبيهاً على أن الكتابة من تمام الكمال من حيث إن العمر قصير والوقائع متسعة ؛ وماذا عسى أن يحفظه الإنسانُ بقلبه أو يحصلّه في ذهنه . ولم تقتصر الكتابة على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف : بل الشعر أيضاً ، فإنَّ ذا الرمّة الشاعر الأموي قال لعيسي بن عمر : «اكتُبْ شعري فالكتابُ أعجبُ إليَّ من الحفظ إنَّ الأعرابي لينسى الكلمة قد سَهرتُ في طلبها ليلةً فيضَع موضعها كلمة في وزنها لا تساويها ، والكتاب لا ينسى ولا يبدّل كلاماً بكلام» .

وقد أطنب السلف في مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأواً لمادح حتى قال سعيد بن العاص : «مَنْ لم يكتبْ فيمينه يُسرى» . وقال مَعْن بن زائدة : «إذا لم تكتب اليد فهي رِجل» وبالغ مكحول فقال : «لاديَةَ ليد لا تكتُب»(٢) .

وخلاصة القول إن الإسلام حث على العلم والتعلم وكتابته وتقييده .

وقد تم جمع القرآن الكريم واستنساخه وتوزيعه على الأمصار في عهد عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، وكتابة الحديث النبوي والسنة النبوية في عهد عمر بن عبدالعزيز ، ومع اتساع الدولة الإسلامية «. . . كثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران ، وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد . . . ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرَّقُّ عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفًا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت»(٣) .

وبظهور مجالس الإملاء وصناعة الورق بالإضافة إلى طبقة الوراقين الذين كانوا يعنون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وبيعها ازدهرت حرفة نسخ المخطوطات ، وبلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري الذي يعد العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية .

وعن هذا العصر وحركة الوراقة فيه وانعكاسها على النشاط الفكري يقول الحلوجي : إنها تمثل جانبًا مضيئًا في تاريخ الثقافة العربية ، وكذلك في تاريخ الحضارة الإنسانية كلها «فقد كانت عاصمة العباسيين في ذلك الزمان البعيد تتمتع بثراء فكري منقطع النظير ، وكانت سوق الوراقين مركزاً للنشاط العقلي ، وكانت حوانيتهم مستودعًا لكل ما أنتجته القريحة العربية في شتى فروع المعرفة . وكانت كثرة هذه الحوانيت ورواج سوقها دليلاً واضحًا على خصوبة الفكر العربي واهتمام الناس في ذلك الزمان بكل مايلقى في مجالس الإملاء وما يدون في بطون الكتب من علوم الدنيا والدين»(٥) .

طرق النسخ

وكانت عملية النسخ تتم بطريقتين : الأولى أن يقوم الناسخ بالنسخ من مخطوطة أخرى بدون مساعدة أحد له وبعد الانتهاء من النسخ يراجع ما نسخه على النسخة التي اعتمد عليها أي يقابلها ويصححها .

أما الطريقة الثانية : فتتمثل في جلوس عدد من النساخ حول شخص آخر يملي عليهم من مخطوطة يراد الحصول على عدة نسخ منها أو جلوس عدد من التلاميذ حول شيخهم . وهو ما يسمى بالإملاء وهو لون من ألوان النَّسْخ ؛ بل هو الصورة الأولى للنَّسْخ . وبعد الفراغ من النسخ تجرى عملية المقابلة والتصحيح .

وكان بعض النساخ يقوم بنسخ الكتب المراد الحصول على نسخ أخر منها داخل بعض المكتبات أو دكاكين الوراقين بحيث يقوم أحد الموظفين بالمكتبة بجلب الكتب المطلوب نسخها إلى النساخ كما كان الحال في «دار العلم ببغداد» حيث كانت تَوْفيقُ الجارية السوداءُ تخرج الكَتب إلى النُّساخ(٥) .

«وقد وجد في مكتبة بني عمار في طرابلس الشام مائة وثمانون نساخًا يتناوبون العمل فيها ليل نهار . حتى لقد وجد أفراد عندهم نساخ اختصوا بهم فكانوا ينسخون لهم الكتب ويتسلمون منهم الجرايات مثل الواقدي والقاضي أبي المطرف وغيرهما»(٦) .

وكان من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها الناسخ الأمانة فيما ينقل وينسخ ، وأن يكون على درجة من المعرفة لفهم ما ينسخه حاضر الذهن متيقظًا ، فشرود الذهن والغفلة قد تؤدي به إلى الخطأ أو إلى إهمال بعض الكلمات أو السطور دون أن يتنبه لها ، وهذا أمر معروف عند من يعمل في مجال فهرسة أو تحقيق المخطوطات .

وقد وضع بعض العلماء آدابًا وشروطًا لنساخ الكتب ومن ذلك ما ذكره ابن جماعة الكناني حيث يقول : «إذا نسخ شيئاً من كتب العلوم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة مستقبلاً القبلة طاهر البدن والثياب . . . ويبتدئ كل كتاب بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم فإن كان الكتاب مبدوءاً فيه بخطبة تتضمن حمدالله تعالى والصلاة على رسوله كتبها بعد البسملة وإلا كتب هو ذلك بعدها»(٧) .

وقد تميز بعض النساخ بإتقانه لفن النسخ فبعضهم لم يكتف بلون واحد ؛ بل استخدم العديد من الألوان لضبط النص فهذا الناسخ محمد بن عبدالله بن محمد بن غطوس (المتوفى سنة ٦١٠هـ) كان يضع «لكل ضبط لونًا من الألوان لا يُخلّ به فاللازورد للشدّات والجزمات واللّك (الأحمر) للضّمات والفتحات والكسرات والأخضر للهمزات المكسورة والأصفر للهمزات المفتوحة لا يخل بشيء من ذلك ، وليس فيه واو ولا ألف ولا حرف ولا كلمة في الحاشية ولا تخريجة وكأنه متى فسد معه شيء أبطل تلك القائمة»(٨) .

ويحدثنا الصفدي عن دقة هذا الناسخ في ضبط ما ينسخه ويقول : بأنه باع مصحفًا لإنسان جاء إليه من بلد بعيد مسافة أربعين يومًا ، وبعد مدة تذكّر الناسخ أنه وضع نقطًا أو ضبطًا على بعض الحروف في غير موضعها فسافر إلى الرجل في بلده ، وقابله ، وطلب منه المصحف ، فتوهم الرجل أن الناسخ تراجع في البيع

فقال له الناسخ : «لابد أن أراه فلما أتى به إليه حك ذلك الغلط وأصلحه وأعاده إلى صاحبه» (٩) .

ومن النساخ من تخصص في كتابة عناوين الكتب ، وهذا يفسر لنا ما نشاهده أحيانًا في بعض المخطوطات من اختلاف نوع الخط بالنسبة للفصول والأبواب عن بقية النص في بعض المخطوطات .

يقول الصفدي عن أحد النساخ واسمه إبراهيم ابن أحمد الزرعي بأن له قدرة على حكايات الخطوط ، ومناسباتها ويحمل الناس إليه الكتب ليكتب أسماءها بحسن خطّه (١٠) .

وكان بعض العلماء يكرهون لجوء بعض النساخ إلى الخط الدقيق أو الرقيق ؛ لأن هذا يتعب نظرهم ، حتى قال ابن حجر العسقلاني ربما كان الناسخ بالخط الدقيق قصير الأمل لا يؤمل أن يعيش طويلاً (١١) .

ويحدثنا العراقي عن سبب كراهية تضييق السطور وتدقيق الخط قائلاً : «لأنه لا ينتفع به من في نظره ضعف ، وربما ضعف نظر كاتبه بعد ذلك فلا ينتفع به كما قال أحمد بن حنبل (لابن عمه) حنبل بن إسحاق ، ورآه يكتب خطاً دقيقًا : لا تفعل أحوج ما تكون إليه يخونك ، وهذا إذا كان لغير عذر ؛ فإن كان ثم عذر كضيق الورق ، أو الرق الذي كتب فيه أو كان رحالاً في طلب العلم يريد حمل كتبه معه فتكون خفيفة الحمل فلا يكره له ذلك» (١٢) .

وعندما سئل عبدالله بن أحمد بن محمد بن روزبة الفارسي (كان حياً سنة ٣٨٠هـ) عن سبب دقة خطه قال : «لقلة الوَرَقَ والورق ، وخفة الحمل على العنق» (١٣) .

وذكر ابن حجَر العسقلاني عن أحد النساخ وهو إسماعيل الزمكحل (المتوفى سنة ٧٨٨هـ) ، أن رئاسة الكتاب انتهت إليه أجاد كتابة الخط الدقيق إلى الغاية بحيث «لا يطمس واواً ولا ميمًا فلم يكن يدركه أحد في ذلك حتى كان يكتب سورة الإخلاص على أرزة ، وكتب من المصاحب اللطاف شيئاً وخطه غاية في الحسن» (١٤) .

وقد عابوا على النساخ أيضًا خط التعليق ، وقيل عن هذا الخط إنه «خط الحروف التي ينبغي تفرقتها وإذهاب أسنان من ينبغي إقامة أسنانه وطمس ما ينبغي إظهار بياضه ، وكذا (المشق) بفتح أوله وإسكان ثانيه وهو خفة اليد وإرسالها مع بعثرة الحروف وعدم إقامة الأسنان» (١٥) .

واتُهم بعض النساخ بعدم الدقة في ضبط الكتابة ويعود ذلك إلى سرعة الكتابة بغية الكسب السريع . ومن النساخ الذين عرفوا بسرعة النسخ محمد بن مملاذ (المتوفى سنة ٦٤٣هـ) ، ذكر أنه كتب في يوم واحد ستة عشر كراسًا وكان ينشئ الرسالة معكوسة يبدأ بالحمدلة ويختم بالبسملة لفرط السرعة (١٦) .

ومن هؤلاء أحمد بن عبدالدائم الفُندقي (المتوفى سنة ٦٦٨هـ) فقد «كان يكتب إذا تفرغ في اليوم تسع كراريس أو أكثر ، ويكتب الكراسين والثلاث مع اشتغاله في يوم وليلة» . قيل إنه كان يكتب «القدوري» في ليلة واحدة . . وقيل «إنه كان ينظر في الصفحة نظرة واحدة ويكتبها» . ويعلق الصفدي على هذه السرعة قائلاً : «ولذلك يوجد له الغلط فيما كتبه كثيراً ، ولازم النسخ خمسين سنة وخطه لا نقط فيه ولا ضبط» (١٧) .

ويقول السخاوي عن محمد بن إسماعيل بن يوسف الحلبي (المتوفى سنة ٨١٤هـ) : «وبلغنا أنه قال : كتبت مصحفًا على الرسم العثماني في ثمانية عشر يومًا بلياليها في الجامع الأزهر سنة (٧٦٥هـ) ، وأنه قال في آخر سنة (٨١٣هـ) أنه نسخ مائة وأربعة وثمانين ما بين مصحف وربعة جميع ذلك من صدره على الرسم العثماني» (١٨) .

ومن رجال القرن التاسع الهجري أيضًا محمود ابن أحمد بن موسى العيني (المتوفى سنة ٨٥٥هـ) ، يقال إنه كتب كتاب القدوري في ليلة ، وإنه كتب الحاوي في ليلة أيضًا (١٩) .

وقيل إن القاضي محمد بن أحمد بن إبراهيم شرف الدين القناوي (المتوفى سنة ٦٩٢هـ) كتب بمَدّة (٢٠) واحدة مائة وعشرين سطراً وقيل إلى ثلاث مئة سطر أو ما يقرب منها (٢١) .

وكان عبدالرزاق بن أحمد بن محمد ، ابن الفوطي (المتوفى سنة ٧٢٣هـ) ، يكتب في اليوم الواحد أربع

كراريس قال الصفدي : «أخبرني من رآه ينام ويضع ظهره إلى الأرض ويكتب ويداه إلى جهة السقف» (٢٢) .

ومن النساخ الذين عرف عنهم سرعة النسخ وفي الوقت نفسه الإتقان محمد بن إبراهيم بن محمد الطاهري، ويعرف بالبدر البشتكي (المتوفى سنة ٨٣٠هـ) وكان يؤثر الانفراد والوحدة مع الجلادة على النسخ مع الإتقان والسرعة الزائدة ، بحيث كان يكتب في اليوم الواحد خمس كراريس فأكثر «وربما يتعب فيضطجع على جنبه ويكتب ، وكتب بخطه من المطولات والمختصرات لنفسه ولغيره ما لا يدخل تحت الحصر كثرة خصوصًا النهر لأبي حيان وإعراب السمين والكرماني وتاريخ الإسلام للذهبي . . . ووجد له بآخر نسخة من النهر أنها الثانية والعشرون بعد المائة مما كتبه بخطه منه» (٢٣) .

والأمثلة على سرعة النساخة من النساخ المحترفين كثيرة نكتفي بما ذكرناه .

ولجأ بعض النساخ إلى طرق ملتوية وحيل غريبة في سبيل ترويج إنتاجهم من أجل الكسب المادي إما بتقليد بعض الخطوط المشهورة ، أو اللجوء إلى تعتيق الورق كما فعل أحمد بن محمد بن يوسف ، ابن دوست البزاز (المتوفى سنة ٤٠٧هـ) ، وغيره . قال عنه أبو القاسم الأزهري : «ابن دوست ضعيف رأيت كتبه كلها طرية ، وكان يذكر أن أصوله العتق غرقت فاستدرك نسخها . سألت أبا بكر البرقاني عن ابن دوست فقال : كان يسرد الحديث من حفظه ، وتكلموا فيه . وقيل إنه كان يكتب الأجزاء ويتربها ليظن أنها عتق» (٢٤) .

وبعض الوراقين استخدم عبيده كنساخ والعبد الذي يعرف النسخ كان يزداد ثمنه عن غيره . ومن الطرق العجيبة التي لجأ إليها بعض الوراقين أن البعض كان يرش ملابس العبد بقطرات من الحبر ليعطي انطباعًا بأنه يعرف الكتابة (٢٥) .

إن كل ما قيل ويقال عن النساخ والوراقين لا ينقص من جهودهم الكبيرة فآلاف المخطوطات العربية التي نشاهدها اليوم ، نسمع عن وجودها في مختلف عواصم ومدن العالم خير شاهد على فضل هؤلاء العاملين المجهولين الذين استطاعوا بجهودهم المتواصلة أن يشيدوا تلك الصروح . هؤلاء النساخ الذين يطلق عليهم اسم الوراقين لم يقتصروا على مهنة النسخ فحسب ؛ بل كان بعضهم يقوم بمقابلة الكتب وتصحيحها وضبطها وتجليدها . وبعضهم يبيع الكتب ويتجر بها وكثيراً ما تحدثنا كتب التاريخ عن سوق الوراقين وأكشاكهم .

وكان بعضهم ذا منزلة عالية من الثقافة والعلم بحكم اتصالهم بالعلماء فهم حلقة الوصل بين العلماء وطلاب العلم وعامة الناس .

إن صناعة هؤلاء العلماء مذهلة بحق فالحسن بن عبدالله المرزباني (المتوفى سنة ٣٦٧هـ) كان لا يأكل إلاّ من عمل يده ينسخ قبل أن يجلس للقضاء والاشتغال كل كراس بعشرة دراهم يتقوت بها ، وكتب ما يزيد على «٣٧٥٨٠» صفحة ، ويقال إن ياقوتًا الحموي كتب «٣٣١٨٠» صفحة . وابن حزم أربع مئة مجلد . وتفسير الطبري ملأ ثلاثين ألف صفحة في الأصل ، ولكنه اختصره إلى ثلاثة آلاف صفحة أما السيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ) عن عمر يناهز ٦٠ عامًا فبلغت كتبه ٦٠٠ كتاب حسب قول المؤرخ المصري ابن إياس (٢٦) .

ومن العلماء الذين اشتغلوا بمهنة النسخ أبو الفتح ابن سيد الناس اليَعْمُرِيّ ، محمد بن محمد بن محمد (المتوفى سنة ٧٣٤هـ) ، «ونسخ بخطه واختار وانتقى شيئاً كثيراً» (٢٧) .

وكذلك علان الشعوبي مؤلف كتاب المثالب . وكان راوية وعارفًا بالأنساب والمثالب والمناظرات . وكذلك ابن النديم صاحب الفهرست ، وياقوت الحموي مؤلف معجم الأدباء ، وابن شاكر الكتبي صاحب «فوات الوفيات» وغيرهم الكثير ولو حاولنا حصرهم لطال بنا الحديث .

لقد قام هؤلاء بدور بارز في إثراء المكتبات بالمخطوطات التي كانوا ينسخونها بدقة وإجادة تامتين .

الهوامش

١ - أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، تقييد العلم . ص ٦٨ .
٢ - أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ .
٣ - عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون . ص ٢٦٨ .
٤ - عبدالستار الحلوجي ، «تراثنا المخطوط : دراسة في تاريخ النشأة والتطور» . ص١٧٢ .
٥ - أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران . تحقيق عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» . (ط ٧ ، القاهرة: دار المعارف ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ص٢٨٧ .
٦ - محمد ماهر حمادة ، الكتاب العربي مخطوطًا ومطبوعًا ٠ - (الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .
٧ - ابن جماعة الكناني ، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص١٧٣ .
٨ - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، الوافي بالوفيات . تحقيق س . ديدر ينغ . (ط ٢ ، ألمانيا الغربية - فيسبادن : فرانز شتايز ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ج ٣ ، ص ٣٥٢ .
٩ - المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .
١٠ - المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .
١١ - محمد بن عبدالرحمن السخاوي ، فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي . (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ، ص ١٦٩ .
١٢ - عبدالرحيم بن الحسين العراقي ، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث . تحقيق محمود ربيع . (ط٢ ، بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
١٣ - محمد بن عبدالرحمن السخاوي ، فتح المغيث شرح ألفية الحديث . ج٢ ، ص ١٦٩ .
١٤ - أحمد بن علي بن محمد ، ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . (بيروت: دار الجيل ، د . ت) ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .
١٥ - محمد بن عبدالرحمن السخاوي ، المصدر نفسه . ج٢، ص ١٧٠ .
١٦ - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، الوافي بالوفيات . ج ٥ ، ص ٦٣ .
١٧ - المصدر نفسه . ج ٧ ، ص ٣٥ .
١٨ - محمد بن عبدالرحمن السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . (بيروت : دار مكتبة الحياة ، د . ت) ، ج٧، ص ١٤٣ - ١٤٤ .
١٩ - المصدر نفسه . ج ١٠ ، ص ١٣٣ .
٢٠ - المدّة : الاستقاء من الدواة .
٢١ - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، الوافي بالوفيات . ج ٢ ، ص ١٣٦ .
٢٢ - أحمد بن علي بن محمد ، ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . ج٢ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
٢٣ - محمد بن عبدالرحمن السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . ج ٦ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
٢٤ - الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد . مج ٥ ، ص١٢٥ .
٢٥ - The Arabic Book. By Johannes Pedersen Princeton University Press Princeton, New Jersey . p 46 .
٢٦ - المصدر نفسه ص ٣٧ - ٣٨ .
٢٧ - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات. ج٢ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

اذ مرا ببيت عاتكة فقال المنصور هذا بيت من فقال
هذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الشاعر
يا بيت عاتكة التى اتغزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
فقال له اخذت ما رسمنا به فقال لا فامر ان يعطاه